الفصل الخامس
هل تصلح الاستبانة في البحث التاريخي

obeikandl.com

ماذا لو طبقنا الاستبانة في البحث التاريخي؟

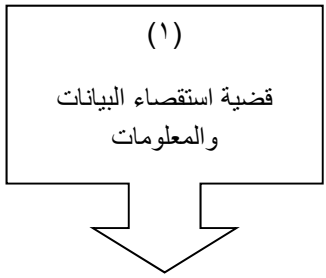

يجمع المختصون في مناهج البحث في العلوم السلوكية على ضرورة بدء الباحث أولى خطوات بحثه بتحديد المصادر التي سيعتمد عليها، والتي ستمده بالبيانات والمعلومات التي تمكِّنه من الإجابة عن تساؤلات هذا البحث، وهذه المصادر تنقسم إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: المصادر الأساسية:

ويطلق عليها المختصون «المصادر الأولية»، أي أنها المصدر الأول للمعلومة، أو هي المصادر التي لم يتم الاعتماد في الحصول عليها على مصادر أخرى سبقتها زمنياً، ويمكن تعريفها أيضاً بأنها المصادر المقررة، أو المكتوبة، أو المنقولة بواسطة الشخص الذي لاحظها مباشرة، أو شارك فيها[١].

ويمكن تقسيم المصادر الأساسية إلى أنواع متعددة يمكن إجمالها اختصاراً في الآتي:

١- أقوال الأشخاص المعتمدين الذين عاشوا الحدث في زمن حدوثه ومكانه، والاعتماد عليهم باعتبارهم مخبرين أو أدلَّاء في تقويم المعلومات المتعلقة بالظاهرة التي عاصروها وشاهدوها بأعينهم، ولاحظوها بأنفسهم.

٢- السجلات والوثائق الرسمية الصادرة من مؤسسات حكومية، أو/و جهات رسمية معينة.

٣- المذكرات التي تم حفظها بعدما كُتبت من قِبَل إنسان مشارك في أحداثها، أو مشاهد لها، وعند كتابتها كان الهدف منها إتاحة المعلومات، والحفاظ عليها مُسجَّلة للعودة إليها مستقبلاً عند الحاجة إليها.

(١) صالح بن حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، مكتبة العبيكان، ص٢٨٧.

ومن أمثلة هذا النوع من المصادر: المحاضر الرسمية للاجتماعات الرسمية، المكاتبات والرسائل الخاصة بين الأفراد، والسير الذاتية، والوصايا، والرسائل، والمقالات، والكتب، التي كتبتها شخصيات البحث، واليوميات، والخرائط، والكتب المخطوطة غير المعتمدة على ما سبقها من كتب، والتسجيلات الصوتية، والصحف والمجلات، وإجمالاً يمكن القول إنها كل الوثائق الموروثة عن فترة تاريخية سابقة قد تصل إلى مجرد سند استلام، أو إعلان في جريدة، أو فاتورة سداد رسوم .. وما شابه ذلك.

٤- الآثار المكتشفة والمرتبطة بفترة حكم معينة، أو حقبة تاريخية معينة، أو المرتبطة بشخصية معنية، أو بجماعة من الناس، ومن ضمنها الأثاث والملابس والأدوات الشخصية، إضافة إلى الآثار التاريخية كالمعابد والنقوش.. وغير ذلك.

٥- الدلائل والشواهد والمعلومات المروية، أي المنقولة عن طريق المقابلة الشخصية لمن عايش الواقعة أو شاهدها، أو ربما سمع عنها، بل يمكن القول إن المقابلة الشخصية قد تتم مع شخص لم يعاصر الواقعة بشكل أو بآخر، وإنما قد يكون بينه وبينها مئات السنين، ولكنها انتقلت إليه بالرواية والإسناد.

٦- التراث الشفوي، كالأساطير، والحكايات الشعبية، والأغاني.

٧- السجلات المصورة كالأفلام والرسوم والصور.

القسم الثاني: المصادر الثانوية :

وهي عبارة عن مصدر يحتوي معلومات سبق ورودها في مصادر أخرى قبلها، وعرَّفها فان دالين بأنها: «تلك المصادر التي تحتوي على تلخيص لمعلومة كتبها شخص لم يلاحظها مباشرة، أو يشارك فيها. وهذه المعلومة إما أن تكون واقعة معينة، أو حالة، أو شيء محسوس[1] ..» ومن أمثلة هذا النوع من المصادر: الكتب المؤلفة اعتماداً على المراجع، وقواعد البيانات والمعلومات، وقواعد المعرفة، وهي وعاء جديد مرتبط بنظرية الإدارة بالمعرفة التي سأشير إليها لاحقاً، وأخبار وتحليلات الصحف والمجلات .. الخ.

[1] فان دالين، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩، ص١٦٢.

وهناك تقسيم آخر للحصول على البيانات والمعلومات التي يبتغيها الباحث، ودرج على استخدامه معظم الباحثين عند إعداد خططهم المتعلقة بخطوات وإجراءات تنفيذ البحوث، حيث ينحصر جمع البيانات والمعلومات في **أسلوبين:**

- **الأسلوب الأول: البيانات والمعلومات المكتبية (الثانوية) :**

وهذه البيانات والمعلومات (الثانوية) تمثل الخلفية النظرية التي بُنيت عليها البحث من خلال الاعتماد على:

- الكتب العلمية.

- البحوث والدراسات العلمية التي بحثت في موضوع البحث موضوع البحث، سواء أكانت هذه البحوث والدراسات منشورة أو غير منشورة.

- الدراسات السابقة المتعلقة بموضوع البحث التي يتصدى لها الباحث أو الباحثة.

- **الأسلوب الثاني : البيانات والمعلومات الميدانية (الأولية) :**

وهي البيانات والمعلومات (الأولية)، والتي يتم جمعها من خلال تطبيق أداة معينة من الأدوات المتعارف عليها، والمختصة بجمع ما يسعى الباحث إلى الحصول عليه من الميدان، بهدف خدمة أهداف البحث وتحقيقها، والإجابة عن محاورها، ومن أهم الأدوات المشار إليها، نجد المصطلح الغربي: Questionnaire، والذي يمكن ترجمته إلى «استفتاء» أحياناً، أو/و «استقصاء»، أو/و «استبيان» في أحيان أخرى، لكن الدلالة الأقرب إلى الصواب من حيث اللغة والاصطلاح؛ هي «استبانة(*)»، ويؤكد هذا ؛ ما يقوله العساف : «ولكن أصح مصطلح هو (استبانة) حيث إنه هو المدلول العربي الصحيح للمراد منها، والذي يشير إلى

---

* استبان: ظهر واتضح، واستبان الشيء : استوضحه فعَرَفَه بَيِّنَاً (المعجم الوسيط، ص٨٠، باب: بان) ؛ (المنجد، ص٥٧، باب: بان).

وأقول: فيما يخص أداة جمع المعلومات، فالأقرب إلى الصواب قولنا: استبانَ الباحثُ الظاهرةَ المبحوثة: أي سعى إلى كشفها دون تدخل مباشر منه، بعكس قولنا: استبين: أي سعى إلى كشفها بنفسه أو بتدخل منه، وكذلك الفعل: استقصى.

تلك الاستمارة التي تحتوي على مجموعة من المحاور، أو / و الأسئلة، أو/و العبارات المكتوبة مزودة بإجاباتها، أو/و الآراء المحتملة، أو بفراغ للإجابة، ويطلب من المجيب عليها – مثلاً– الإشارة إلى ما قد يراه مهماً، أو ما ينطبق عليه منها، أو ما يعتقد أنه هو الإجابة الصحيحة[1]».

وعلى ضوء هذا الاستطراد المبرر؛ يمكن القول إن الاستبانة في مجال البحث العلمي تعد واحدة من أشهر أدوات القياس وجمع المعلومات في الدراسات والبحوث المتعلقة بالعلوم الإنسانية، خصوصاً إذا كان الباحث يستخدم المنهج الوصفي بتفريعاته المختلفة، وعندئذ يقوم باختيار مجتمع البحث، ومن ثُمَّ عينة البحث – أياً كان نوعها: قصدية أو عشوائية أو طبقية.. الخ – ويتم تفعيل الاستبانة بعد إخضاعها للمقاييس السيكومترية: الصدق والثبات والموضوعية، مما لا داعي لتفصيل القول فيه في هذا الموضع.

وباعتباري باحثة في التاريخ والحضارة؛ وبالتحديد في العصر العباسي المتأخر؛ وكنت بصدد القراءات التمهيدية في موضوع بحثي للماجستير عن «الحياة العلمية في عصر الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) »، وكان ذلك مع بدايات العام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، فقد انشغلت بقضية استقصاء المعلومات والبيانات في البحث التاريخي، وشعرت بعوز شديد وشُح في المعلومات والبيانات إزاء بعض التساؤلات والقضايا والفروض التي تواجه – في الغالب – الباحث في التاريخ والحضارة.

وعندئذ لجأت إلى مراجع مناهج البحث، وعلم الإحصاء، علني أجد منفذاً أُطل منه على حلول، ووجدت من يقول نصاً : «ينبغي على الباحث ألا يستخدم الاستبانة أداةً لبحث إلا إذا تعذَّر عليه الحصول على المعلومات بواسطة أداة أخرى، كأن تكون في سجلات أو كتب، أو بواسطة الملاحظة مثلاً، أو عندما تكون المعلومة المطلوبة هي وجهة النظر الخاصة، أو الرأي الشخصي في قضية ما، أو عندما يكون الهدف عبارة عن استنتاج الأسباب الكامنة وراء سلوك معين[2]..».

---

[1] العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية ، ص٣٤٢.

[2] نفسه، ص٣٤٣.

وشعرت بشيء من الثقة، لأني وجدت متكئاً أستند إليه في تبرير الفكرة التي تشع في ذهني، ولا أُجيد السيطرة عليها بعد، وحاولت أن أروِّضها على مدى أسابيع، ووجدت في قول « العساف» السابق ما يدعم توجهي، وكانت قناعاتي وقتئذٍ تتبلور في التساؤل:

- ولِمَ لا ؟!

ثم قمت بتبديل المقاعد، وجلست في مقعد المُعارِض لفكرتي، وأجبت عن التساؤل السابق بالتساؤل التالي:

- **لماذا استبانة في البحث التاريخي ؟!**

وسارعت إلى أساتذتي وأستاذاتي في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الملك عبدالعزيز بجدة أطرح عليهم هواجسي البحثية، وجلسوا جميعاً في مقاعد المعارضة وطرحوا نفس التساؤل السابق، ولماذا استبانة في البحث التاريخي ؟!

وفي الحقيقة كان للاعتراضات ما يبررها، فالمتبع أن يتم قياس رأي؛ أو جمع معلومات عن ظاهرة إنسانية معاشة، يدركها مجتمع البحث، ولا يستطيع الإجابة عنها ..، أما أن يتم استجواب مجتمع بحث عن ظاهرة تعود لمئات السنين التي سلفت؛ فكان هذا هو الجديد في الأمر.

وهنا وجدت بعضاً قليلاً من الأساتذة يقول:

- ولِمَ لا ؟ .. قومي بتحويل هذه الإرهاصات إلى ورقة بحثية، ونقوم بمناقشتك فيها في «سيمينار» يُعقد خصيصاً لهذا الأمر.

وعُدت إلى بيتي أجلس إلى مكتبي، وأشرع في تجميع أفكاري ومبرراتي، وأرد على كل التساؤلات المفترضة التي سيواجهني بها أساتذتي، وتمحورت أفكاري وقتئذٍ في التالي :

- **بدأت بما كان يجب أن أبدأ به** .. مراجع مناهج البحث العلمي وكيفيات إعداد الخطة البحثية، وما يتعلق بها من أساليب إحصائية، وسبق استعراض هذه العناصر التي خلصت منها إلى أن دراسة العصر العباسي حضارياً تحتاج إلى المصادر الأولية المطبوعة والمخطوطة المعاصرة لفترة البحث، إلى جانب أوعية المعلومات الأولية الأخرى كالمتاحف والآثار القائمة والسير الذاتية، وكتب التراجم، وأدب الرحلات.

• **نظراً لتقادم فترة البحث؛ فإن سماع الشهود** – باعتباره من المصادر الأولية – يصبح ضرباً من المستحيل، وبالتالي فنحن إزاء أوعية معلومات (أولية وثانوية) تتمثل فقط في الآتي:

١- مصادر فترة البحث المطبوعة والمحققة.

٢- المراجع الحديثة التي تناولت فترة البحث من كافة جوانبها (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، والدينية، والديموجرافية، والانثروبولوجية، والجغرافية أيضاً)، سواء أكانت هذه المراجع دراسات أكاديمية، أو مقالات وبحوث محكَّمة، أو من خلال كتب الرأي للمختصين والمهتمين من المثقفين والمفكرين.

٣- مصادر فترة البحث غير التقليدية، والمتمثلة في المخطوطات والوثائق المكتوبة، وهي مصادر أولية، إلى جانب ما كُتب عن الأماكن التي وقعت فيها أحداث فترة البحث، من خلال المراجع الأثرية المصورة في كتب، أو تلك المصورة في مواد فيلمية، وهذه المراجع يمكن تسميتها بالمصادر التمهيدية التي تقع موقعاً وسطاً بين المصادر الأولية والثانوية، شأنها شأن الموسوعات، وقواعد البيانات، وقوائم الفهارس، وغير ذلك.

٤- كم كان بودي أن أقوم بزيارة لعاصمة العباسيين «بغداد»، وهي موقع أحداث موضوع بحثي، بغرض معايشة العبق التاريخي – إن صح التعبير– فأشاهد الآثار العباسية المتبقية، وأزور المكتبات، وألتقي بأساتذة العصر العباسي هناك، وهو يجعلني أعايش الفترة التاريخية المدروسة، فأعبر عنها بشكل أكثر عمقاً من مجرد تصفح الأوراق داخل المكتبة، وهنا كانت فكرة إضافة مصدر معلومات رابع وهو زيارة مواقع الأحداث.

وأقول كان بودي زيارة بغداد، لأن هذه الرغبة لم تتحقق بسبب ما تعرضت له العراق، وبغداد على وجه الخصوص من أحداث استثنائية، وما لحق بالآثار العباسية والمتاحف والقصور من أضرار بالغة.

• **من خلال تساؤلات معينة تدور في ذهن الباحثة**، قد لا تتوافر إجاباتها في المصادر والمراجع بشكل مباشر، فقد قررت مناقشة أصحاب الخبرة العلمية والتخصص في الفترة موضوع البحث، والحصول منهم على إجابات عن تلك التساؤلات.

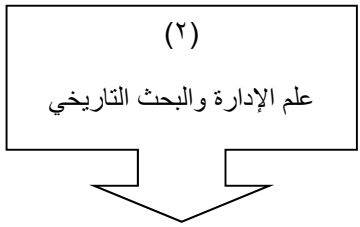

- **في تسعينيات القرن الميلادي الماضي ظهر في مجال علم الإدارة العام ما يُعرف بنظرية إدارة المعرفة، أو الإدارة بالمعرفة Management by Knowledge**، أو Knowledge Management وهي من أهم النظريات الإدارية التي ظهرت في حقبة العولمة، وبالتالي أصبحت قضية «نقل المعرفة» من أهم أولويات المؤسسات التعليمية والمراكز البحثية المتنوعة، ثم توظيف هذه المعرفة المنقولة من خلال دمجها مع المعرفة المتوفرة، فيتم إنتاج معرفة جديدة متطورة؛ وأصبح من المحتم الاستفادة من تطبيقات ومنهجيات هذه النظرية لا في مجال البحث العلمي داخل الجامعات فحسب؛ بل في جميع المؤسسات والمنظمات الخدمية والإنتاجية.

وجدير بالذكر أن من أهم محاور نظرية الإداة بالمعرفة، محور الإداري الخبير، أو القيادي الخبير، أو أستاذ الجامعة الخبير، الذي يمتلك كماً كبيراً من المهارات والخبرات والمعارف في مجال تخصصه، ويتفرد بهذه الخبرات بين زملائه، باعتبارها ملكية فكرية تخصه، ومن هنا جاءت هذه النظرية لتطلب من «الخبير» – مقابل حوافز معينة – أن يفيض بخبراته ومعارفه على من معه في مجال العمل، من خلال آليات تقنية عديدة صارت متوافرة حيث يمكن نقل «المعرفة الضمنية» في عقول الخبراء إلى «معرفة ظاهرة» متوافرة في «قواعد المعرفة» التي نسخت وألغت – إلى حد بعيد – ما يُعرف بـ «قواعد البيانات والمعلومات».

- **ومن خلال «نقل المعرفة » ودمجها مع هذه المعرفة المتوفرة**؛ تنتج لدينا «قواعد معرفية» حديثة يجب مداومة تطويرها وتغذيتها بكل جديد على مدار اليوم والساعة، وإزاء كل هذا يتحول العاملون في منظمة معينة –والذين في الغالب يعملون بشكل فردي – إلى

فريق عمل Team Work متكامل يُهيمن ويُشرف عليه «الخبير» من خلال شبكة حاسوبية دقيقة ومنظمة.

لقد انشغلت جداً أثناء بدايات الإعداد لخطة دراسة الماجستير بقضية نقل المعرفة، واقتصاديات المعرفة، وأهمية أن ينتبه العقل العربي إلى مرحلة المبادرة بالفعل، ولعل ما أشرت إليه آنفاً حول مصطلحي «المعرفة الضمنية»و «المعرفة الصريحة» يستوجب التوقف عندهما قليلاً.

فالمعرفة الضمنية هي المعرفة المتراكمة، والمختزنة في العقل، فالمعلم، أو أستاذ الجامعة، أو المحاضر في ندوة، أو المتحدث في لقاء تلفازي قبل أن يتحدث أي منهم فمعرفته ضمنية، فإذا تحدَّث تحولت إلى معرفة ظاهرة، والمستمعون لهؤلاء يتلقون المعرفة الظاهرة ويستوعبونها فتتحول لديهم إلى معرفة ضمنية، فإذا مارسوا العصف الذهني والتغذية المرتدية أصبحنا أمام ظاهرة مختلفة : معرفة ظاهرة أمام معرفة ظاهرة، فإذا تحدثوا لذويهم بعد ذلك تحولت المعرفة الضمنية إلى ظاهرة، وهكذا .. وهكذا..

أما الذي يستذكر فيتلقى معرفة ضمنية وتتحول في ذاكرته إلى ضمنية أيضاً.. وبالتالي فنحن أمام فهم جديد لتداول المعرفة، وكيفية انتقالها بين الأفراد، فما البال في انتقالها داخل المنظمة الواحدة أو بين المنظمة وغيرها من المنظمات. بالتأكيد نحن أمام نقلة موضوعية في عالم تدفق المعرفة، يجعل الحديث عن قواعد البيانات والمعلومات كأنه شيء من الماضي .. وكل هذا أيضاً يصبُّ في وجهة نظري التي تدعو إلى الحصول على المعرفة بكل الوسائل الكفيلة بأن ترفع عن الباحث تهمة التكاسل في طلب المعلومة، أو البيان، أو المعرفة .. فنحن نعيش عصر المعرفة وتدفق المعرفة.

وإزاء كل هذا فقد وضعت أيضاً مجموعة رؤوس أقلام لتدافع عن وجهة نظرها في استخدام الاستبانة في البحث التاريخي :

١- البحث عن آلية معينة تسمح بتنظيم الاتصال بمجموعة من الأساتذة الأكاديميين «الخبراء»، بما يسمح لهذه المجموعة باستخدام أسلوب العصف الذهني، والتعامل بروح الفريق لحل مشكلة بحثية معينة – وفي أسرع وقت – دون الحاجة إلى الجلوس مع بعضهم البعض.

ومن خلال هذه المنهجية التفاعلية يمكن الحصول على معلومات عن موضوع معين من فريق عمل يتكون من أساتذة خبراء، تم اختيارهم بعناية، وذلك للإجابة عن الاستبانة، مع ملاحظة أنهم ليسوا الوحيدين الخبراء في مجال موضوع الاستبانة، ولكن تصبح مقتضيات التوزيع الجغرافي للجامعات العربية هي التي تفرض هذه الاختيارات.

٢- للوصول إلى هذه الآلية، لابد من اتخاذ الخطوات التالية :

- جمع المعلومات حول الموضوع المراد دراسته.
- ترتيب المعلومات في نقاط، أو أسئلة، ووضعها في الاستبانة.
- الاستبانة في العادة عبارة عن مجموعة محاور، هي نفسها تساؤلات أي مشكلة بحثية، ويتم صياغة عبارات كل محور بحيث تستوفي هذه العبارات جميع جوانب المحور الذي نريد أن تجيب عنه عينة البحث من المبحوثين، ولكننا في هذه الاستبانة التي نحن بصدد الإقناع بجدواها، نعتبر كل تساؤل هو محور في حد ذاته، والإجابة عنه ستكون بطريقة محددة – ستتضح لاحقاً – ولكنها ليست خاضعة لمقياس ليكرت Leakert الخماسي أو الثلاثي في اختيار الإجابات من متعدد، ومن الممكن في تطبيقات لاحقة لتوظيف الاستبانة في البحث التاريخي أن يتم الاستعانة بمقياس ليكرت في تحديد إجابات المبحوثين، واعترف بأني استخدمت أبسط أشكال الاستبانة كأداة لجمع البيانات والمعلومات، مع ملاحظة أني أخذت بنوعيّ الاستبانة: المفتوحة والمغلقة، ودمجت بينهما، ومعروفٌ أن الاستبانة المفتوحة هي التي تسمح للمبحوثين بالإجابة بحرية عن الأسئلة، وهي مهمة لمعرفة الجوانب المختلفة في شخصية المبحوث، ودراسة الظواهر المعقدة، والتي تحتاج منه إلى شرح وتوضيح، مع أن مشكلتها تكمن في أن الإجابات تكون متنوعة وثرية ومتباينة، ويجد الباحث صعوبة شديدة في تبويبها وتحليلها. أما الاستبانة المغلقة فلا تسمح للمبحوث أن يجيب عن الأسئلة بتعبيراته اللفظية والفكرية، بل يفرض عليه الباحث إجابات محددة يختار منها ما يتناسب مع وجهة نظره هو، وغالباً ما يعتمد الباحث مقياس "ليكرت" الخماسي (موافق-موافق

بشدة – محايد – غير موافق – غير موافق إطلاقاً)، أو المقياس الثلاثي: (موافق – محايد – غير موافق)، أو (نعم – محايد – لا). ومن مزايا هذا النوع سهولة تصنيف وتبويب الإجابات إحصائياً، ويعيبها الشح في المعلومات المتحصل عليها من المبحوث، بعكس النوع الأول. وإزاء هذا؛ اعتمدت النوعين وأدمجتهما في النوع الثالث من أنواع الاستبانات، وهو الاستبانة المذيلة بأجوبة متوقعة من المبحوث، فكان السؤال عبارة عن شقين: الأول، أطلب إلى المبحوث الإجابة عن السؤال من خلال مربع بـ (نعم)، و(لا)، أو وضع علامة (صح)، أو (خطأ)، ثم يقوم بكتابة التعليق الذي يراه في حدود خمسة أسطر (انظر: الاستبانة في الفصل السادس من هذا الكتاب.

- تحديد الأساتذة الخبراء الذين سيشاركون في الإجابة عن الاستبانة مع ترك مسألة الإفصاح عن أسمائهم من عدمه قابلة للنقاش، فربما كان عدم الإفصاح عن الأسماء مبرراً طيباً لإتاحة المجال للتعبير عن الرأي بحرية أوسع، بينما إعلان الاسماء يستدعي تخصيص نسخة من الاستبانة مشفوعة ببيانات الأستاذ المبحوث، وتوثيق إجاباته بطريقة متقنة؛ لأن هذه الآراء ستتحول إلى مرجع علمي يرجع إليه الباحثون، وهذه التداعيات والتفاصيل ستلقي عبئاً إضافياً خصوصاً إذا كانت الإجابة تتطلب كتابة تعليق – كما في هذه الاستبانة المستهدفة – .
- العمل على إرسال الاستبانة إلى الأساتذة الخبراء ومن ثم استعادتها، واستخلاص النتائج الإحصائية.
- بعد أن يتم جمع استمارات الاستبانة، يتم تنظيم الآراء – إحصائياً – وفقاً لأكثرها اتفاقاً، ثم تعالج إحصائياً، وتعرض كتغذية مرتدة في ملاحق البحث من خلال مناقشة الآراء الموافقة والمعارضة.
- التركيز والتأكيد على مسألة تضمين الاستبانة في ملاحق البحث لدرء شبهة توظيفي لهذه الآراء في خدمة أغراض دراستي، أو الوقوع في شبهة الأحكام المسبقة عند شروعي في إعداد بحثي.

- التأكيد على أن الهدف من الاستبانة ليس البحث عن توافق مطلق في الآراء، بل الهدف هو جمع الآراء حول قضية ما، ومناقشة وجهات النظر المتباينة حولها، ومن ثم توضيح الحجج ذات الصلة بالآراء المتعارضة وتنفيذها.

٣- يمكن حصر المزايا المتوقعة لهذه الاستبانة في التالي :

- الوصول إلى تعرُّف آراء مجموعة من الخبراء في أقصر وقت ممكن.
- قلة تكاليف هذه الآلية مقارنة بالطرق التقليدية الأخرى كالمؤتمرات والندوات وورش العمل.
- تيسير الأمر وتقليل النفقات، وتوفير الجهد المبذول في الوصول إلى الأساتذة حيث هم يوجدون، وهذا عبء ينال من جهد الباحث الرجل فما البال بالباحثة.
- سهولة تصنيف الآراء وترتيبها ومعالجتها إحصائياً، ومن ثم الوصول إلى نتائج دقيقة وسريعة وغير مكلفة.
- البعد عن الجدل المتوقع حدوثه في حال اجتماع الخبراء على مائدة واحدة، وربما البعد عن المجاملات في إبداء الرأي في ظل اختلاف التوجهات السياسية والمذهبية بين أساتذة بعض الدول وأساتذة البعض الآخر.
- الاستبانة أسلوب علمي ومحايد يلغي عوامل التأثير المباشر الذي أشرت إليه آنفاً.
- الاستبانة أسلوب منهجي منظم يستخدم منهج تحليل البيانات والنظم.
- النتائج تعامل بأسلوب إحصائي يقوم على قواعد محددة في تحليل النتائج ما يعطيها دقة ومصداقية.

وعلى ضوء رؤوس الأقلام التي سبقت الإشارة إليها؛ نتوقع أن يساهم الأسلوب الإحصائي، وما أتيح من تقنيات تسهِّل استخدام برنامج الحزم الإحصائية للعلوم الإنسانية SPSS من حسم الكثير من القضايا الخلافية في تاريخنا العربي والإسلامي، ونستطيع الخروج برؤية مشتركة متفق عليها – إلى حد ما – يحسم فيها الرأي الأصوب – بأدلته وبراهينه – كثيراً من تلك القضايا الخلافية، ويمكن إعادة كتابة تاريخنا، وتجاوز الكثير من العقبات التي تحول دون الاتفاق على قاسم مشترك حول بعض هذه القضايا التي أثارها البحث العلمي الحديث.

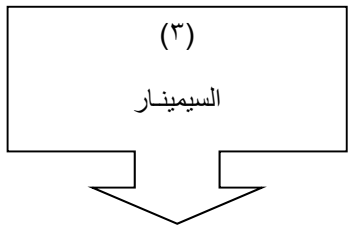

لقد أعددت خطتي لبحث الماجستير بمنهجية غير مألوفة، ووظفت نفس خطوات الخطة البحثية التي يقوم بإعدادها باحثو العلوم الإنسانية المختلفة، فبدأت بالمقدمة التمهيدية، واستعرضت مشكلة البحث التي خلصت إلى التساؤل الرئيس للدراسة، واتبعت ذلك بمجموعة تساؤلات فرعية منبثقة عن التساؤل الرئيس، ثم وضعت مجموعة من «الفروض» البحثية المعتمدة على بعض «الافتراضات» المسبقة نتيجة القراءات التمهيدية في الموضوع، بحيث أسعى إلى التحقق من صحة هذه الفروض على مدار فصول ومباحث البحث، ثم حددت أهداف البحث، وأهميتها النظرية والتطبيقية، وأعقبت ذلك بشرح مفهوم الأسلوب التاريخي – المنبثق عن المنهج الوصفي – القائم بدراسة الظاهرة القديمة من خلال الرجوع إلى أصلها، فيصفها، ويحللها، ويفسرها بجمع الحقائق والمعلومات من خلال دراسة مصادر البيانات والمعلومات بنوعيها الأولية والثانوية، حيث تم جمع المادة العلمية، ومقابلة الروايات بعضها بالبعض الآخر، بهدف الوصول إلى أصدق الحقائق، مع التزام الصدق والحياد، والحرص على توثيق المعلومات بنسبتها إلى مصادرها، والتأكيد على نظريتي الخاصة في التعامل مع الظاهرة التاريخية والحضارية من الوقوف عند أحداث الماضي؛ لفهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل.

وبما أن المنهج الوصفي يعتمد على الوصف الكيفي للظاهرة المبحوثة؛ فقد وظّفت الأسلوب الإحصائي للانتقال بالظاهرة المبحوثة من البحث الكيفية إلى البحث الكمية، وذلك باستخدام أسلوب التحليل الكمي بتوظيف الجداول الإحصائية، والنسب المئوية والجداول التكرارية مُدعِّمة كل ذلك بالقطاعات الدائرية والأشكال البيانية فيما يتعلق بأعداد العلماء، والعلوم التي اختصوا فيها، والمصنفات التي أنتجوها.

ولا أدَّعي أني أول من وظَّف الأسلوب الإحصائي في الدرس التاريخي، ولكني أدّعي – وفي تواضع شديد – أني أول من وظّف أسلوب الاستبانة كمصدر رابع من مصادر البيانات والمعلومات، بعد المصادر الأولية والثانوية والتمهيدية.

ثم اتبعت الحديث عن المنهجية بوضع حدود دراستي الموضوعية منها والزمانية والمكانية، ثم حددت مسار دراستي وأقسامها وفصولها. وأظن ظناً أن هذا الأسلوب في إعداد الخطة البحثية في التاريخ والحضارة من شأنه أن يضفي على البحث قدراً من الحيوية، يخرج به من نطاق الحديث عن الأموات والظواهر المنقضية، إلى محاولة فهم الحاضر المعاش بأحداثه الجسام، والتنبؤ بالمستقبل من خلال استيعاب الدروس المستفادة من الماضي والحاضر، وتأتي الاستبانة أيضاً لتؤكد على هذا وتضيف إليه . وحظيت الخطة بالقبول من أساتذتي رغم التعديلات الرائعة والمفيدة التي أتحفوني بها والتزمتها.

وجاء الدور على مناقشة الاستبانة، وتباينت الآراء واختلفت، لكن إصراري عليها – كأسلوب مبتكر في جمع المادة العلمية – وعلى ضوء ما سبق شرحه؛ فقد تفضل أساتذتي مشكورين بالموافقة، رغم تحفظ الكثير منهم، وكان هذا النجاح بداية السعي نحو بدئي في الخطوات التالية:

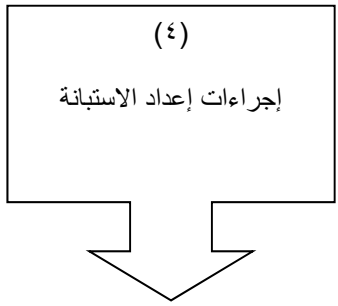

قمت بتصميم وبناء أداة البحث (الاستبانة) لقياس آراء أعضاء هيئات التدريس المختصين في التاريخ الإسلامي حول موضوع البحث الذي بعنوان «**الحياة العلمية في بغداد في عصر الخليفة الناصر لدين الله العباسي**»، وانقسمت الأداة إلى قسمين رئيسين:

- **القسم الأول : البيانات الشخصية:**

ويشمل مجموعة المتغيرات الوسيطة الخاصة بكل فرد من أفراد عينة البحث (الاسم/ التخصص الدقيق/ الجامعة/ الكلية).

- **القسم الثاني : محاور الأداة :**

وكانت هذه المحاور عبارة عن مجموعة أسئلة ليست من ضمن تساؤلات البحث وفروضها – على غير المتبع في كون محاور أداة البحث توضع للإجابة عن تساؤلاتها –، وهذه المحاور أو الأسئلة كانت عبارة عن قضايا مثارة ومتعلقة بفترة البحث وبشخص الخليفة الناصر ولا توجد أجوبة شافية أو كافية أو دقيقة لها في مصادر ومراجع البحث، أو لا توجد لها أجوبة من الأصل، ومن هنا كانت أهمية الأداة، وانقسم كل سؤال (محور) إلى شقين: الأول يحتاج للإجابة عنه بـ (نعم) أو (لا)، أما الشق الثاني فيحتاج إلى تعليق مكتوب من الخبير المبحوث عن موضوع المحور أو السؤال في حدود خمسة أسطر، في مزاوجة بين شكلي الاستبانة المفتوحة والمغلقة، وإنتاج نوع ثالث بدأت بتطبيقه، ونجح بحمد الله.

هذا .. وقد روعي في إعداد محاور الاستبانة ما يلي:

١- التقليل من عمومية التساؤلات، فقد تم اختصارها إلى ما يمت لموضوع البحث مباشرة.

٢- ركَّزْتُ على صياغة مجموعة تساؤلات تتناول :

- الجانب السياسي للخليفة الناصر، والأوضاع السياسية السائدة آنذاك في بغداد.
- الجوانب الشخصية له بما يخدم الجانب الموضوعي للدراسة.
- عدم إقحام الحياة العلمية كثيراً في الأسئلة بشكل مباشر؛ حتى لا يتم الوقوع تحت تأثير رأي من الآراء فيعد بمثابة أحكام مسبقة تؤثر على حيادية الدراسة.
- التركيز على الأسئلة التي لا توجد لها إجابات مباشرة في المصادر والمراجع، أو التي يدور حولها جدل واضح بين معاصري فترة البحث والمحدثين.

- **مجتمع البحث :**

وتشكَّل مجتمع البحث من جميع المختصين في كلٍ من التاريخ العباسي على وجه الخصوص، والتاريخ الوسيط على وجه العموم، وذلك في الجامعات والمراكز البحثية السعودية كجامعة الملك عبدالعزيز، وجامعة الملك سعود، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكذا الجامعات والمراكز البحثية العربية، وكان التركيز بشكل مباشر على جامعات بغداد والموصل والقاهرة وعين شمس والأزهر.

- **عينة البحث :**

نظراً لضخامة مجتمع البحث وصعوبة حصره ومراسلته في وقت قصير، فقد تم الاكتفاء بتحديد عينة قصدية (عمدية) طبقية قوامها (٤٠) فرداً، وجدير بالذكر أن المقصود بالعينة العمدية تحديد الأفراد بأسمائهم قصداً، وأما « الطبقية» فهي تحديد (١٥) فرداً من فئة الأستاذ المساعد، و(١٥) فرداً من فئة الأستاذ المشارك، و(١٠) أفراد من فئة الأستاذ.

- **التحقق من صدق وثبات الأداة :**

من المفترض أن تخضع أي استبانة لاختبارات معاملات الصدق والثبات والموضوعية، والتي تُعرف بـ"الخصائص السيكوميترية"، فيتم إخضاعها لمقياس بيرسون Pearson للتأكد من صدقها، وأنها سوف تقيس ما أعدت لقياسه، ثم إخضاعها لمعامل ألفا- كرونباخ Alpha- Cronbach's للتيقن من ثباتها، وأنه لو تم تطبيقها في المستقبل على نفس المجتمع فتؤتي نفس النتائج الحالية، ونظراً لعدم اشتمال كل محور من حاورها على محاور

فرعية أو عبارات؛ فيصبح إخضاعها لهذين المقياسين غير ذي قيمة، وبالتالي فقد تم الاكتفاء بتطبيق الصدق الظاهري (صدق المحكِّمين) للتأكد من أنها سوف تقيس ما وضعت لقياسه، وبالفعل تم توزيع الاستبانة في صورتها الأولية على المختصين من أساتذة التاريخ العباسي، والوسيط عموماً بكلية الآداب جامعة الملك عبدالعزيز بجدة لإبداء الرأي فيها، وقد أخذت بكل التعديلات والمقترحات والآراء البناءة التي أشار بها الأساتذة المحكمون، وتم إعداد الأداة في صورتها النهائية، وأصبحت جاهزة للتوزيع على عينة البحث.

- **أسلوب توزيع الاستبانة :**

تم توزيع الأداة على الكليات المختصة بالجامعات السعودية والعربية بواسطة البريد المسجل بعلم الوصول، ومرفق بها خطاب اعتماد من رئيس قسم التاريخ، وخطاب تعريف من الباحثة، ومرفق أيضاً مظروف معنون وطابع البريد لتسهيل عملية الرد، في توقيت لم يكن البريد الإلكتروني قد شاع بعد. وفيما يختص بجامعة بغداد وجامعة الموصل، ونظراً للأحداث القاسية التي عانى منها العراقيون في العام ٢٠٠٥م؛ فقد تم التواصل مع الأساتذة عبر الهاتف الخلوي وأجهزة الفاكس، ورغم الصعوبات الجمة التي واجهتنى لإنجاز الاتصالات الهاتفية، والإرسال عبر الفاكس، ثم الاتصالات المتوالية والمرهقة لمتابعة عملية الإجابة عن الأسئلة ومن ثم إعادة الإرسال. وضرب الأساتذة العراقيون مثالاً رائعاً في الالتزام والحماس لتلبية رغبتي، وكانت جديتهم واضحة في إجاباتهم، فمما لا شك فيه أن أجوبتهم كانت تشكل أهمية خاصة لنجاح الأداة فهم الأقدر بين المختصين للإجابة عن الأسئلة المتعلقة ببغداد وبالخليفة الناصر[1].

- **أسلوب معالجة البيانات :**

بعد ورود استمارات الاستبانة من أفراد عينة البحث، والقيام بعملية المراجعة لكل

[1] وفي هذا السياق يجدر بي أن أتوجه بالشكر العميم للأستاذ الدكتور المحقق البحاثة بشار عواد معروف على كريم عطفه وتواضعه، فقد أمدني بقدر هائل من التأييد والتشجيع، وثمَّن خطواتي واجتهاداتي، وأمدني أيضاً بكل ما طلبت من مصادر ومراجع، وقرأ بحثي عن الخليفة الناصر، وأشاد به، وهذا فضل من الله تعالى.

واحدة منها؛ م استبعاد ثلاث استبانات لم تستوف البيانات كاملة، ومن ثم أصبح العدد الإجمالي للاستمارات الصحيحة المستوفاة (٣٧) استمارة، قام المعالج الإحصائي بإدخال البيانات والمعلومات إلى الحاسوب، وباستخدام الحزم الإحصائية للعلوم السلوكية Spss ؛ تم إجراء المعالجة الإحصائية واستخراج المتوسطات الحسابية والجداول التكرارية والنسب المئوية والانحرافات المعيارية مدعومة بالأشكال البيانية والقطاعات الدائرية للاستبانة من جهة، ولسائر المعالجة الإحصائية الخاصة بالعلماء والتخصصات العلمية والإنتاج العلمي في متن البحث.

وقد تم إفراد نتائج الاستبانة في ملحق خاص في الملاحق كدراسة مستقلة، من خلال مناقشة النتائج الإحصائية والتعليق عليها وربط هذه النتائج المتحصل عليها بنتائج البحث لعموم الفائدة، دون الإشارة إلى نتائج الاستبانة في المتن، والعكس صحيح.

obeikandl.com